أَوْمَأَ بيرو مُوَافِقًا، فَقَدْ كَانَ مُتَقَدِّمًا عَنِ الْجَدْوَلِ آنَذَاكَ وَيَكْسِبُ مَزِيدًا مِنَ الْوَقْتِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. كَانَ الطَّرِيقُ فِي حَالَةٍ مُمْتَازَةٍ وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ ثَلْجٌ جَدِيدٌ، كَمَا لَمْ يَكُنْ الْجَوُّ شَدِيدَ الْبُرُودَةِ. تَنَاوَبَ الرَّجُلَانِ عَلَى قِيَادَةِ الْمِزْلَجَةِ وَالرَّكْضِ بِجَانِبِهَا.

كَانَ ذَلِكَ الْجُزْءُ مِنْ نَهْرِ يوكون الَّذِي يَمْتَدُّ لِثَلَاثِينَ مِيلًا مُغَطًّى بِالْجَلِيدِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَفِي يَوْمٍ وَاحِدٍ قَطَعَ الْفَرِيقُ الْمَسَافَةَ نَفْسَهَا الَّتِي قَطَعَهَا فِي عَشَرَةِ أَيَّامٍ فِي رِحْلَةِ الذَّهَابِ. وَفِي رِحْلَةٍ وَاحِدَةٍ قَطَعُوا سِتِّينَ مِيلًا مِنْ بُحَيْرَةِ لوبارج إِلَى مُنْحَدَرَاتِ وايت هورس. وَرَكَضُوا بِسُرْعَةٍ هَائِلَةٍ عَبْرَ بُحَيْرَاتِ مارش وَتاجيش وَبينيت حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَتَعَيَّنُ عَلَى الرَّجُلِ الَّذِي يَحِينُ دَوْرُهُ فِي الرَّكْضِ بِجَانِبِ الْمِزْلَجَةِ أَنْ يُمْسِكَ حَبْلًا مَرْبُوطًا فِي الْمِزْلَجَةِ. وَفِي آخِرِ لَيْلَةٍ مِنَ الْأُسْبُوعِ الثَّانِي، وَصَلُوا إِلَى مِنْطَقَةِ الْمَمَرِّ الْأَبْيَضِ، وَكَانَ يُمْكِنُهُمْ رُؤْيَةُ أَضْوَاءِ بَلْدَةِ سكاجوي مِنْ عَلَى بُعْدٍ.

كَانَتْ رِحْلَةٌ فِي وَقْتٍ قِيَاسِيٍّ؛ فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لِمُدَّةِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْمًا كَانُوا يَرْكُضُونَ مَسَافَةَ أَرْبَعِينَ مِيلًا فِي الْمُتَوَسِّطِ. وَلِمُدَّةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَى بَلْدَةِ سكاجوي، ظَلَّ بيرو وَفرانسوا يَحْتَفِلَانِ فِي الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ، وَعَرَضَ الْجَمِيعُ أَنْ يَدْعُوهُمْ لِتَنَاوُلِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، بَيْنَمَا كَانَ فَرِيقُ الْكِلَابِ مَحَلَّ نَظَرَاتِ حَشْدٍ مِنْ سَائِقِي الْكِلَابِ الَّذِينَ تَأَمَّلُوهُمْ بِإِعْجَابٍ.

الفصل السادس

تَجَارِبُ جَدِيدَةٌ

بَعْدَ بِضْعَةِ أَيَّامٍ انْتَهَتْ الِاحْتِفَالَاتُ وَعَادَ الْجَمِيعُ إِلَى الْعَمَلِ، فَقَدْ وَصَلَتْ أَوَامِرُ رَسْمِيَّةٌ تُوَجِّهُ فرانسوا وَبيرو إِلَى أَمَاكِنَ جَدِيدَةٍ وَكَانَ عَلَيْهِمَا تَرْكُ فَرِيقِهِمَا وَرَاءَهُمَا. نَادَى فرانسوا باك وَاحْتَضَنَهُ وَبَكَى، وَكَانَتْ هَذِهِ هِيَ آخِرُ مَرَّةٍ يَرَى فِيهَا باك فرانسوا وَبيرو؛ فَعَلَى غِرَارِ غَيْرِهِمْ مِنَ الرِّجَالِ، رَحَلُوا مِنْ حَيَاةِ باك إِلَى الْأَبَدِ.

تَوَلَّى رَجُلٌ اسْكُتْلَنْدِيٌّ مَسْئُولِيَّةَ باك وَزُمَلَائِهِ فِي الْفَرِيقِ، مَعَ اثْنَيْ عَشَرَ فَرِيقًا مِنَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى وَبَدَأَ فِي طَرِيقِ الْعَوْدَةِ إِلَى داوسون.

لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ رَكْضٌ خَفِيفٌ، وَلَا مُحَاوَلَةٌ لِتَحْقِيقِ رَقْمٍ قِيَاسِيٍّ، فَقَطْ عَمَلٌ شَاقٌّ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَعَ حِمْلٍ ثَقِيلٍ عَلَى الْمِزْلَجَةِ. كَانَتْ هَذِهِ هِيَ قَافِلَةُ الْبَرِيدِ الَّتِي تَحْمِلُ الْخِطَابَاتِ إِلَى الرِّجَالِ الَّذِينَ يَبْحَثُونَ عَنِ الذَّهَبِ.

لَمْ يُحِبَّ باك الْأَمْرَ، وَلَكِنْ كَانَ يُمْكِنُهُ تَنْفِيذُ الْعَمَلِ وَالافْتِخَارُ بِذَلِكَ مِثْلَ ديف وَسوليكس، وَكَانَ يَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَقُومَ بَاقِي زُمَلَائِهِ بِالْجُزْءِ الْخَاصِّ بِهِمْ مِنَ الْعَمَلِ سَوَاءٌ أَكَانُوا يَشْعُرُونَ بِالْفَخْرِ أَمْ لَا. لَقَدْ كَانَتْ حَيَاةٌ مُمِلَّةٌ، وَكَانَ كُلُّ يَوْمٍ يُشْبِهُ غَيْرَهُ. فَفِي وَقْتٍ مُحَدَّدٍ كُلَّ صَبَاحٍ، كَانَ الطُّهَاةُ يَسْتَيْقِظُونَ وَيُشْعِلُونَ النِّيرَانَ وَيَبْدَءُونَ فِي طَهْيِ الْإِفْطَارِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ، بَيْنَمَا يَقُومُ بَعْضُ الرِّجَالِ بِحَزْمِ الْمُخَيَّمِ، يَتَوَلَّى آخَرُونَ تَجْهِيزَ الْكِلَابِ بِالسُّرُوجِ ثُمَّ يَبْدَءُونَ فِي شَقِّ طَرِيقِهِمْ قَبْلَ الْفَجْرِ بِسَاعَةٍ تَقْرِيبًا. وَفِي الْمَسَاءِ، كَانُوا يُخَيِّمُونَ مُجَدَّدًا، فَيَتَوَلَّى بَعْضُ الرِّجَالِ إِشْعَالَ النِّيرَانِ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ يَقْطَعُ الْحَطَبَ، وَآخَرُونَ كَانُوا يَجْلِبُونَ الْمِيَاهَ أَوِ الثَّلْجَ إِلَى الطُّهَاةِ. كَمَا كَانَ يَتِمُّ إِطْعَامُ الْكِلَابِ أَيْضًا،

وَبِالنِّسْبَةِ لَهَا كَانَ ذَلِكَ هُوَ أَكْثَرُ الْأَوْقَاتِ الشَّيِّقَةِ عَلَى مَدَارِ الْيَوْمِ، كَمَا كَانَ التَّسَكُّعُ مَعَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى لِمُدَّةِ سَاعَةٍ أَوْ مَا يَقْرُبُ بَعْدَ تَنَاوُلِ السَّمَكِ مُمْتِعًا أَيْضًا، فَقَدْ كَانَ هُنَاكَ الْعَشَرَاتُ مِنَ الْكِلَابِ. وَكَانَ هُنَاكَ مُقَاتِلَانِ شَرِسَانِ مِنْ بَيْنِهِمْ، وَلَكِنْ بَعْدَ ثَلَاثِ مَعَارِكَ شَرِسَةٍ مَعَ أَكْثَرِ الْكِلَابِ شَرَاسَةً أَصْبَحَ باك مُقَاتِلًا لَا يُقْهَرُ. فَعِنْدَمَا كَانَ يَقِفُ مُنْتَصِبًا وَيُكَشِّرُ عَنْ أَنْيَابِهِ، كَانَتْ كُلُّ الْكِلَابِ تَبْتَعِدُ عَنْ طَرِيقِهِ.

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ مَا كَانَ يُحِبُّهُ باك هُوَ الِاسْتِلْقَاءُ بِجَانِبِ النِّيرَانِ وَأَرْجُلُهُ الْخَلْفِيَّةُ مَثْنِيَّةٌ تَحْتَهُ وَالْأَمَامِيَّةُ مَمْدُودَةٌ أَمَامَهُ، وَرَأْسُهُ مَرْفُوعَةٌ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ عَلَى وَهِيجِ النِّيرَانِ بِنَظَرَاتٍ حَالِمَةٍ. كَانَ يُفَكِّرُ أَحْيَانًا فِي مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر فِي وَادِي سانتا كلارا الَّذِي تَغْمُرُهُ الشَّمْسُ، وَفِي خَزَّانِ السِّبَاحَةِ الْأَسْمَنْتِيِّ، وَفِي يسابل — الْكَلْبِ الْمِكْسِيكِيِّ الْأَصْلَعِ — وَفِي توتس — كَلْبِ البج الْيَابَانِيِّ — وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَذَكَّرُ أَكْثَرَ الرَّجُلَ ذَا السُّتْرَةِ الْحَمْرَاءِ، وَإِصَابَةَ الْكَلْبَةِ كيرلي، وَالْمَعْرَكَةَ الْكُبْرَى مَعَ سبيتز، وَالْأَشْيَاءَ الْجَيِّدَةَ الَّتِي أَكَلَهَا أَوِ الَّتِي يُرِيدُ أَنْ يَأْكُلَهَا. لَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِالْحَنِينِ إِلَى مَنْزِلِهِ؛ لَقَدْ كَانَ الْجَنُوبُ بَعِيدًا جِدًّا وَلَمْ تَكُنْ ذِكْرَيَاتُهُ تُؤَثِّرُ فِيهِ؛ بَلْ كَانَتِ الْغَرَائِزُ الَّتِي يَشْعُرُ بِهَا أَكْثَرَ أَهَمِّيَّةً، فَكَانَتْ تَجْعَلُ أَشْيَاءَ لَمْ يَرَهَا مِنْ قَبْلُ تَبْدُو مَأْلُوفَةً.

كَانَتِ الرِّحْلَةُ شَاقَّةً مَعَ كُلِّ هَذَا الْبَرِيدِ عَلَى الْمِزْلَجَةِ، وَقَدْ أَرْهَقَ الْعَمَلُ جَمِيعَ الْكِلَابِ. فَكَانَتْ جَمِيعُهَا وَاهِنَةً عِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى داوسون وَبِحَاجَةٍ إِلَى أُسْبُوعٍ أَوْ عَشَرَةِ أَيَّامٍ عَلَى الْأَقَلِّ لِلرَّاحَةِ. وَلَكِنْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ بَدَءُوا رِحْلَتَهُمْ فِي الطَّرِيقِ بِجَانِبِ نَهْرِ يوكون مُحَمَّلِينَ بِخِطَابَاتٍ مُجَدَّدًا. كَانَتِ الْكِلَابُ مُرْهَقَةً، وَالسَّائِقُونَ يَتَذَمَّرُونَ، وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ كَانَتِ الثُّلُوجُ تَنْهَمِرُ كُلَّ يَوْمٍ. وَقَدْ جَعَلَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ نَاعِمًا وَالْمِزْلَجَةَ لَمْ تَكُنْ تَنْزَلِقُ بِسُهُولَةٍ مِمَّا كَانَ يَعْنِي أَنَّ جَرَّهَا كَانَ أَثْقَلَ بِالنِّسْبَةِ لِلْكِلَابِ. وَرُغْمَ صُعُوبَةِ الْأَمْرِ، كَانَ السَّائِقُونَ عَادِلِينَ طَوَالَ الْوَقْتِ وَقَامُوا بِأَفْضَلِ مَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ أَجْلِ الْحَيَوَانَاتِ.

فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، كَانَ يَتِمُّ الِاعْتِنَاءُ بِالْكِلَابِ أَوَّلًا. كَانَتْ تَأْكُلُ قَبْلَ السَّائِقِينَ وَلَمْ يَشْرَعْ أَيٌّ مِنْهُمْ فِي تَجْهِيزِ حَقِيبَةِ نَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يَعْتَنِيَ بِأَقْدَامِ الْكِلَابِ الَّتِي يَقُودُهَا، وَمَعَ ذَلِكَ، كَانَتْ قُوَّتُهَا تَخْبُو. فَمُنْذُ بِدَايَةِ الشِّتَاءِ سَافَرَتِ الْكِلَابُ أَلْفًا وَثَمَانِمِائَةَ مِيلٍ وَهِيَ تَجُرُّ الْمِزْلَجَاتِ كُلَّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ، وَهَذِهِ الْمَسَافَةُ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تُوْهِنَ حَتَّى أَقْوَى الْكِلَابِ. كَانَ باك مُسْتَمِرًّا

فِي الْعَمَلِ وَيَحْرِصُ عَلَى أَنْ يَقُومَ زُمَلَاؤُهُ بِعَمَلِهِمْ كَذَلِكَ، وَيَتَعَاوَنُونَ مَعًا رُغْمَ أَنَّهُ كَانَ مُرْهَقًا هُوَ الْآخَرُ. كَانَ بيلي يَبْكِي وَيَئِنُّ فِي نَوْمِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ. وَكَانَ جو لَئِيمًا أَكْثَرَ مِنْ ذِي قَبْلُ، وَأَصْبَحَ لَا يُمْكِنُ الِاقْتِرَابُ مِنْ سوليكس مِنْ أَيِّ جَانِبٍ.

وَلَكِنْ مِنْ بَيْنِ كِلَابِ الْفَرِيقِ، كَانَ ديف أَكْثَرَ مَنْ يُعَانِي؛ فَشَيْءٌ مَا لَمْ يَكُنْ عَلَى مَا يُرَامُ بِهِ. لَقَدْ أَصْبَحَ أَكْثَرَ تَعَاسَةً وَغَضَبًا، وَبِمُجَرَّدِ إِقَامَةِ الْمُخَيَّمِ كَانَ يَحْفِرُ حُفْرَةً لِلنَّوْمِ حَيْثُ كَانَ سَائِقُهُ يُطْعِمُهُ. وَكَانَ بِمُجَرَّدِ تَحَرُّرِهِ مِنَ السَّرْجِ وَاسْتِلْقَائِهِ، لَا يَنْهَضُ إِلَّا عِنْدَ وَقْتِ وَضْعِ السَّرْجِ مُجَدَّدًا فِي الصَّبَاحِ. وَأَحْيَانًا وَهُوَ فِي السَّرْجِ، عِنْدَمَا كَانَ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ بِقُوَّةٍ كَانَ يَصْرُخُ أَلَمًا. وَقَدْ تَفَقَّدَهُ السَّائِقُ وَلَكِنْ لَمْ يَجِدْ بِهِ أَيَّةَ إِصَابَةٍ.

وَعِنْدَ وُصُولِهِمْ إِلَى كاسيار بار، كَانَ ديف ضَعِيفًا لِلْغَايَةِ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَسْقُطُ أَرْضًا فِي السَّرْجِ. أَوْقَفَ السَّائِقُ الِاسْكُتْلَنْدِيُّ الْكِلَابَ وَأَخْرَجَ ديف مِنَ الْفَرِيقِ. فَقَدْ أَرَادَ أَنْ يُرِيحَ ديف وَيَتْرُكَهُ يَرْكُضُ بِحُرِّيَّةٍ خَلْفَ الْمِزْلَجَةِ. وَرُغْمَ أَنَّهُ كَانَ مَرِيضًا لِلْغَايَةِ، لَمْ يُحِبَّ ديف أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الْفَرِيقِ، فَقَدْ تَذَمَّرَ وَزَمْجَرَ أَثْنَاءَ إِزَالَةِ السَّرْجِ، وَتَأَوَّهَ بِحُزْنٍ وَهُوَ يَرَى سوليكس فِي الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يَشْغَلُهُ لِوَقْتٍ طَوِيلٍ؛ لَقَدْ كَانَ ديف فَخُورًا بِعَمَلِهِ، حَتَّى إِنَّهُ رُغْمَ مَرَضِهِ الشَّدِيدِ، لَمْ يَكُنْ يُطِيقُ رُؤْيَةَ كَلْبٍ آخَرَ يَقُومُ بِعَمَلِهِ.

عِنْدَمَا بَدَأَتِ الْمِزْلَجَةُ تَتَحَرَّكُ مَرَّةً أُخْرَى، رَكَضَ ديف فِي الثَّلْجِ وَهُوَ يَنْبَحُ تِجَاهَ سوليكس وَيُحَاوِلُ دَفْعَهُ بَعِيدًا عَنِ الطَّرِيقِ. حَاوَلَ السَّائِقُ أَنْ يُبْقِيَ ديف بَعِيدًا عَنِ السَّرْجِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ، وَقَدْ جَعَلَهُ ذَلِكَ حَزِينًا لِلْغَايَةِ. كَانَ يَرَى كَمْ كَانَ ديف يَتَلَهَّفُ لِأَنْ يَكُونَ ضِمْنَ الْفَرِيقِ، فَقَدْ رَفَضَ الرَّكْضَ بِهُدُوءٍ خَلْفَ الْمِزْلَجَةِ حَيْثُ كَانَ الرَّكْضُ سَهْلًا، وَظَلَّ يَرْكُضُ بِجَانِبِ الْمِزْلَجَةِ عَلَى الثُّلُوجِ النَّاعِمَةِ حَيْثُ كَانَ الرَّكْضُ أَكْثَرَ صُعُوبَةً حَتَّى أُنْهِكَتْ قُوَاهُ. ثُمَّ اسْتَلْقَى لِيَنَالَ قِسْطًا مِنَ الرَّاحَةِ فِي حِينِ مَرَّتْ بِهِ بَاقِي الْمِزْلَجَاتِ.

وَبِكُلِّ مَا تَبَقَّى مِنْ قُوَّتِهِ، تَمَكَّنَ ديف مِنَ اللَّحَاقِ بِالْمِزْلَجَاتِ حَيْثُ تَوَقَّفَتْ لِلرَّاحَةِ، وَمَرَّ بِالْمِزْلَجَاتِ الْأُخْرَى حَتَّى وَجَدَ مِزْلَجَتَهُ، ثُمَّ وَقَفَ إِلَى جَانِبِ سوليكس. كَانَ السَّائِقُ بَعِيدًا لِبِضْعِ دَقَائِقَ يُحْضِرُ وَلَّاعَةً مِنْ أَجْلِ غُلْيُونِهِ مِنَ الرَّجُلِ الَّذِي خَلْفَهُ. ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمِزْلَجَةِ وَبَدَأَتِ الْكِلَابُ رِحْلَتَهَا، وَلَكِنَّهَا انْطَلَقَتْ تَرْكُضُ عَلَى الطَّرِيقِ بِسُهُولَةٍ، فَالْتَفَتَتْ وَرَاءَهَا ثُمَّ تَوَقَّفَتْ فِي دَهْشَةٍ. وَكَانَتِ الدَّهْشَةُ تَعْتَرِي السَّائِقَ كَذَلِكَ؛ فَالْكِلَابُ انْطَلَقَتْ لَكِنَّ

الْمِزْلَجَةَ لَمْ تَتَحَرَّكْ مِنْ مَكَانِهَا. فَنَادَى السَّائِقُ عَلَى السَّائِقِينَ الْآخَرِينَ لِرُؤْيَةِ مَا حَدَثَ؛ كَانَ ديف قَدْ قَضَمَ السَّرْجَ الَّذِي يَصِلُ سوليكس بِالْكِلَابِ الْأُخْرَى وَبِالْمِزْلَجَةِ وَكَانَ يَقِفُ أَمَامَهَا بِالضَّبْطِ.

كَانَ يَتَوَسَّلُ بِعَيْنَيْهِ لِيَبْقَى فِي مَكَانِهِ، وَلَمْ يَكُنِ السَّائِقُ يَدْرِي مَاذَا يَفْعَلُ. وَأَخَذَ السَّائِقُونَ الْآخَرُونَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ كَيْفَ تَحْزَنُ الْكِلَابُ عِنْدَمَا يَتِمُّ إِبْعَادُهَا عَنِ الْعَمَلِ الَّذِي تُحِبُّهُ، وَعَنْ كِلَابٍ أُخْرَى قَامَتْ بِأَفْعَالٍ مُشَابِهَةٍ. وَرَأَوْا أَنَّهُ رُغْمَ أَنَّ ديف كَانَ مَرِيضًا وَمُصَابًا، يَنْبَغِي لَهُمْ تَرْكُهُ يَقُومُ بِالْعَمَلِ إِذَا أَرَادَ ذَلِكَ. لِذَا وَضَعُوا عَلَيْهِ السَّرْجَ مُجَدَّدًا وَقَامَ بِجَرِّ الْمِزْلَجَةِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مِنْ قَبْلُ، وَلَكِنَّهُ صَرَخَ أَلَمًا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أَثْنَاءَ عَمَلِهِ وَسَقَطَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ وَهُمْ يَرْكُضُونَ.

تَمَاسَكَ ديف حَتَّى أَقَامُوا مُخَيَّمَهُمْ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، حَيْثُ أَقَامَ لَهُ السَّائِقُ مَكَانًا بِجَانِبِ النِّيرَانِ. وَفِي الصَّبَاحِ، كَانَ وَاهِنًا لِلْغَايَةِ وَلَا يَسْتَطِيعُ السَّفَرَ، وَاضْطُرَّ السَّائِقُ لِتَرْكِهِ خَلْفَهُ حَتَّى يَرْتَاحَ وَيَتَحَسَّنَ. وَكَانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ يَرَاهُ زُمَلَاؤُهُ فِيهَا وَهُوَ مُسْتَلْقٍ فَوْقَ الثُّلُوجِ يُرَاقِبُهُمْ وَهُمْ يَرْحَلُونَ فِي طَرِيقِهِمْ. كَانَ يُمْكِنُهُمْ سَمَاعُهُ وَهُوَ يَعْوِي بِحُزْنٍ حَتَّى اخْتَفَوْا مِنْ أَمَامِهِ خَلْفَ بَعْضِ الْأَشْجَارِ بِجَانِبِ النَّهْرِ.

الفصل السابع

أَسْيَادٌ جُدُدٌ

بَعْدَ مُرُورِ ثَلَاثِينَ يَوْمًا عَلَى رَحِيلِهِمْ مِنْ داوسون، وَصَلَ باك وَزُمَلَاؤُهُ إِلَى بَلْدَةِ سكاجوي. كَانَ الْفَرِيقُ يَحْمِلُ بَرِيدَ مِنْطَقَةِ سولت ووتر، وَكَانَتِ الْكِلَابُ مُنْهَكَةَ الْقُوَى تَمَامًا. وَانْخَفَضَ وَزْنُ باك مِنْ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ رَطْلًا إِلَى مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ رَطْلًا فَقَطْ. وَرُغْمَ أَنَّ الْكِلَابَ الْأُخْرَى كَانَتْ أَقَلَّ وَزْنًا مِنْ باك، فَقَدْ فَقَدَتْ وَزْنًا أَكْثَرَ مِنْهُ. وَكَانَ بايك — الَّذِي كَانَ يَتَظَاهَرُ بِإِصَابَةِ قَدَمِهِ لِكَيْ يَتَهَرَّبَ مِنَ الْعَمَلِ — يَعْرُجُ حَقًّا، وَكَذَلِكَ كَانَ سوليكس، كَمَا أُصِيبَ كَتِفُ داب.

كَانَتْ أَرْجُلُهُمْ تُؤْلِمُهُمْ أَلَمًا شَدِيدًا، وَلَمْ يَعُدْ لَدَيْهِمُ الْقُدْرَةُ عَلَى الْقَفْزِ وَالِانْطِلَاقِ، وَكَانَتْ تَرْكُضُ بِأَرْجُلٍ مُثْقَلَةٍ مُتْعَبَةٍ عَلَى الطَّرِيقِ. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ خَطْبٌ مَا بِالْكِلَابِ سِوَى أَنَّهَا كَانَتْ مُنْهَكَةَ الْقُوَى تَمَامًا، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ نَوْعَ الْإِنْهَاكِ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ الْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ، وَالَّذِي كَانَ يُشْفَى بَعْدَ بِضْعِ سَاعَاتٍ، وَلَكِنَّهُ كَانَ الْإِنْهَاكَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدَ الْعَمَلِ الشَّاقِّ الْمُسْتَمِرِّ لِعِدَّةِ أَشْهُرٍ طَوِيلَةٍ. لَمْ يَعُدْ هُنَاكَ أَيُّ قُوَّةٍ بَاقِيَةٍ لَدَى الْكِلَابِ، فَقَدِ اسْتُنْزِفَتْ قُوَاهَا تَمَامًا حَتَّى آخِرِ قَطْرَةٍ، وَخَارَتْ قُوَى كُلِّ عَضَلَةٍ فِي أَجْسَادِهَا. فَفِي أَقَلَّ مِنْ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ، كَانَتِ الْكِلَابُ قَدْ قَطَعَتْ مَسَافَةَ أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ، وَخِلَالَ الْأَلْفِ وَثَمَانِمِائَةِ مِيلٍ الْأَخِيرَةِ لَمْ تَأْخُذْ إِلَّا خَمْسَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ لِلرَّاحَةِ. وَعِنْدَمَا وَصَلَتِ الْكِلَابُ إِلَى سكاجوي، بَدَتْ وَكَأَنَّهَا تَبْذُلُ آخِرَ قَطَرَاتِ الْقُوَّةِ فِي أَجْسَادِهَا. كَانَتْ بِالْكَادِ تَسْتَطِيعُ جَرَّ الْمِزْلَجَةِ، وَفِي التِّلَالِ الْمُنْحَدِرَةِ، كَانَتْ تَتَمَكَّنُ بِالْكَادِ مِنَ الْبَقَاءِ بَعِيدًا عَنْ طَرِيقِ الْمِزْلَجَةِ.

«تَقَدَّمِي أَيَّتُهَا الْكِلَابُ الْمِسْكِينَةُ الْمُنْهَكَةُ. هَذَا هُوَ آخِرُ الْمَطَافِ، ثُمَّ سَنَأْخُذُ اسْتِرَاحَةً طَوِيلَةً. سَنَأْخُذُ اسْتِرَاحَةً طَوِيلَةً بِالتَّأْكِيدِ.» هَكَذَا قَالَ السَّائِقُ وَهُوَ يُشَجِّعُ الْكِلَابَ وَهِيَ تُهَرْوِلُ فِي الطَّرِيقِ الرَّئِيسِيِّ لسكاجوي.

كَانَ السَّائِقُونَ عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّهُمْ سَيَأْخُذُونَ اسْتِرَاحَةً طَوِيلَةً، وَلَكِنْ كَانَ هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ هَرْوَلُوا إِلَى كلونديك بَحْثًا عَنِ الذَّهَبِ، وَالْعَدِيدُ مِنْهُمْ لَمْ يُحْضِرْ عَائِلَتَهُ مَعَهُ، مِمَّا يَعْنِي وُجُودَ الْكَثِيرِ مِنَ الْبَرِيدِ مَعَ الْأَوَامِرِ الرَّسْمِيَّةِ. وَكَانَتْ هُنَاكَ دُفْعَاتٌ جَدِيدَةٌ مِنْ كِلَابِ خَلِيجِ هدسون فِي طَرِيقِهَا لِتَحُلَّ مَحَلَّ هَذِهِ الْكِلَابِ الَّتِي خَارَتْ قُوَاهَا وَلَا تَسْتَطِيعُ الرَّكْضَ عَلَى الطَّرِيقِ بَعْدَ الْآنَ. وَقَدْ بِيعَتِ الْكِلَابُ الَّتِي لَمْ تَعُدْ قَادِرَةً عَلَى الرَّكْضِ.

مَرَّتْ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، وَاكْتَشَفَ باك وَزُمَلَاؤُهُ كَمْ كَانُوا ضُعَفَاءَ وَمُرْهَقِينَ. وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الرَّابِعِ، أَتَى رَجُلَانِ مِنَ الْجَنُوبِ وَاشْتَرَوْهُمْ مَعَ السُّرُجِ وَكَافَّةِ الْمُعَدَّاتِ. كَانَ الرَّجُلَانِ يُدْعَوَانِ هال وتشارلز، وَكَانَ تشارلز رَجُلًا فِي مُنْتَصَفِ الْعُمْرِ ذَا عَيْنَيْنِ دَامِعَتَيْنِ وَشَارِبٍ مَلْفُوفِ الْأَطْرَافِ؛ فِي حِينِ كَانَ هال فِي التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ أَوِ الْعِشْرِينَ مِنْ عُمْرِهِ، وَكَانَ يَحْمِلُ مُسَدَّسًا ضَخْمًا وَسِكِّينَ صَيْدٍ مَرْبُوطَيْنِ فِي حِزَامِهِ. بَدَا الرَّجُلَانِ غُرَبَاءَ عَنِ الشَّمَالِ، وَلَمْ يَفْهَمْ أَيُّ أَحَدٍ أَسْبَابَ مَجِيئِهِمَا لِلشَّمَالِ.

سَمِعَ باك الرِّجَالَ يَتَحَدَّثُونَ، وَرَأَى الرَّجُلَ يَتَبَادَلُ الْمَالَ مَعَ مُوَظَّفِ الْحُكُومَةِ، وَعَلِمَ أَنَّ السَّائِقَ الِاسْكُتْلَنْدِيَّ وَسَائِقَيْ قِطَارِ الْبَرِيدِ سَيَخْرُجُونَ مِنْ حَيَاتِهِ مِثْلَ بيرو وَفرانسوا وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ خَرَجُوا مِنْ حَيَاتِهِ قَبْلَ ذَلِكَ. وَعِنْدَمَا وَصَلُوا إِلَى مُخَيَّمِهِمُ الْجَدِيدِ، رَأَى باك مَكَانًا فَوْضَوِيًّا. كَانَتِ الْخَيْمَةُ عَلَى وَشْكِ الِانْهِيَارِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ أَطْبَاقٌ مُتَّسِخَةٌ. كَمَا رَأَى امْرَأَةً كَانَ الرَّجُلَانِ يَدْعُونَهَا مرسيدس، وَهِيَ زَوْجَةُ تشارلز وَأُخْتُ هال.

رَاقَبَهُمْ باك بِتَوَتُّرٍ وَهُمْ يُحَاوِلُونَ إِزَالَةَ الْخَيْمَةِ وَتَحْمِيلَ الْمِزْلَجَةِ. لَقَدْ كَانُوا يَبْذُلُونَ قُصَارَى جُهْدِهِمْ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَاذَا يَفْعَلُونَ؛ فَقَدْ لَفُّوا الْخَيْمَةَ فِي لُفَافَةٍ أَكْبَرَ بِثَلَاثَةِ أَضْعَافٍ مِمَّا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ، وَتَرَكُوا الْأَطْبَاقَ مُتَّسِخَةً وَحَزَمُوهَا. وَكَانَتْ مرسيدس وَالرَّجُلَانِ يَتَحَدَّثُونَ وَيَتَجَادَلُونَ طَوَالَ الْوَقْتِ. وَعِنْدَمَا وَضَعُوا حَقِيبَةَ الْمَلَابِسِ فِي الْأَمَامِ عَلَى الْمِزْلَجَةِ، اقْتَرَحَتْ هِيَ أَنْ تُوضَعَ فِي الْخَلْفِ، وَبَعْدَ أَنْ وَضَعُوهَا هُنَاكَ وَغَطَّوْهَا بِأَشْيَاءَ

أُخْرَى، اكْتَشَفَتْ أَنَّ هُنَاكَ أَشْيَاءَ أُخْرَى نَسِيَتْ أَنْ تَحْزِمَهَا وَيَجِبُ أَنْ تُوضَعَ فِي حَقِيبَةِ الْمَلَابِسِ. لِذَا فَرَّغُوا الْحُمُولَةَ كُلَّهَا وَبَدَءُوا مِنْ جَدِيدٍ.

جَاءَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ مِنْ مُخَيَّمٍ قَرِيبٍ وَرَاقَبُوهُمْ وَهُمْ يَضْحَكُونَ وَيَتَغَامَزُونَ.

وَقَالَ أَحَدُهُمْ: «لَدَيْكُمْ حِمْلٌ ثَقِيلٌ بِالْفِعْلِ. لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَدَخَّلَ فِي عَمَلِكُمْ، وَلَكِنْ لَوْ كُنْتُ مَكَانَكُمْ، لَمَا أَخَذْتُ الْخَيْمَةَ.»

صَاحَتْ مرسيدس وَهِيَ تُلَوِّحُ بِيَدَيْهَا: «مُسْتَحِيلٌ! كَيْفَ يُمْكِنُنَا الْعَيْشُ بِدُونِ خَيْمَةٍ؟»

فَأَجَابَ الرَّجُلُ: «لَسْتُمْ بِحَاجَةٍ إِلَيْهَا. إِنَّهُ وَقْتُ الرَّبِيعِ وَلَنْ تُوَاجِهُوا جَوًّا بَارِدًا بَعْدَ الْآنَ.»

هَزَّتْ رَأْسَهَا بَيْنَمَا كَانَ تشارلز وَهال يَضَعُونَ آخِرَ الْأَشْيَاءِ فَوْقَ الْحُمُولَةِ الضَّخْمَةِ.

سَأَلَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «أَتَظُنُّ أَنَّهَا سَتَتَحَرَّكُ؟»

قَالَ تشارلز بِغَضَبٍ: «وَلِمَ لَا؟»

قَالَ الرَّجُلُ بِسُرْعَةٍ: «حَسَنًا، حَسَنًا، لَقَدْ كُنْتُ أَتَسَاءَلُ فَقَطْ. فَقَدْ بَدَا أَنَّ الْحِمْلَ ثَقِيلٌ.»

أَدَارَ تشارلز ظَهْرَهُ وَشَدَّ الْحِبَالَ بِأَفْضَلِ مَا يُمْكِنُهُ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ جَيِّدًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

سَأَلَ رَجُلٌ آخَرُ: «وَهَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ أَنَّ هَذِهِ الْكِلَابَ يُمْكِنُهَا التَّحَرُّكُ طَوَالَ الْيَوْمِ وَهِيَ تَجُرُّ كُلَّ هَذَا الْحِمْلِ؟»

قَالَ هال: «بِالتَّأْكِيدِ، انْطَلِقِي! انْطَلِقِي!»

قَفَزَتِ الْكِلَابُ إِلَى الْأَمَامِ فِي السَّرْجِ وَجَذَبَتْ بِقُوَّةٍ لِعِدَّةِ لَحَظَاتٍ ثُمَّ اسْتَرْخَتْ؛ فَلَمْ تَسْتَطِعْ جَرَّ الْمِزْلَجَةِ.

صَاحَ هال: «حَيَوَانَاتٌ كَسُولَةٌ!» وَغَضِبَ مِنَ الْكِلَابِ، وَلَكِنْ طَلَبَتْ مِنْهُ مرسيدس أَلَّا يُعَامِلَهَا بِقَسْوَةٍ.

صَاحَتْ: «الْحَيَوَانَاتُ الْمِسْكِينَةُ! الْآنَ يَجِبُ أَنْ تَعِدَنِي أَنَّكَ لَنْ تَكُونَ قَاسِيًا مَعَهَا فِي بَاقِي الرِّحْلَةِ وَإِلَّا لَنْ أَتَحَرَّكَ خُطْوَةً وَاحِدَةً.»

رَدَّ عَلَيْهَا أَخُوهَا بِسُخْرِيَةٍ: «أَنْتِ لَا تَعْرِفِينَ شَيْئًا عَنِ الْكِلَابِ. إِنَّهَا حَيَوَانَاتٌ كَسُولَةٌ وَيَجِبُ أَنْ تَكُونِي قَاسِيَةً مَعَهَا، حَتَّى تَكُونَ ذَاتَ نَفْعٍ. هَذِهِ هِيَ طَرِيقَتُهَا، وَاسْأَلِي أَيَّ شَخْصٍ آخَرَ؛ اسْأَلِي أَحَدَ هَؤُلَاءِ الرِّجَالِ.»

قَالَ أَحَدُ الرِّجَالِ: «إِنَّهَا حَيَوَانَاتٌ ضَعِيفَةٌ لِلْغَايَةِ، مُنْهَكَةُ الْقُوَى بِشِدَّةٍ، وَهَذِهِ هِيَ الْمُشْكِلَةُ، إِنَّهَا بِحَاجَةٍ لِلرَّاحَةِ.»

قَالَ هال بِغَضَبٍ: «كَلَّا، إِنَّهَا لَيْسَتْ كَذَلِكَ.»

صَاحَ الرَّجُلُ الْآخَرُ رَدًّا عَلَيْهِ: «إِنَّهَا بِحَاجَةٍ لِذَلِكَ إِذَا أَرَدْتَهَا قَوِيَّةً بِشَكْلٍ كَافٍ لِتَقُومَ بِعَمَلِهَا.»

أَجَابَ هال: «لِمَ لَا تَتْرُكُونَنِي وَشَأْنِي مَعَهَا، وتَدَعُونَنِي أَقُومُ بِعَمَلِي!»

– «اسْتَمِعْ إِلَيَّ أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَنَا فَقَطْ أُحَاوِلُ أَنْ أُعْطِيَكَ نَصِيحَةً جَيِّدَةً. أَيُّ شَخْصٍ يُمْكِنُهُ أَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ الْكِلَابَ بِحَاجَةٍ لِلرَّاحَةِ. وَلَكِنْ إِذَا كُنْتَ لَا تُرِيدُ الِاسْتِمَاعَ إِلَيَّ، فَلَسْت مُضْطَرًّا لِذَلِكَ.»

أَجَابَ هال: «لَقَدْ قُلْتَهَا بِنَفْسِكَ.»

لِلَحْظَةٍ بَدَا وَكَأَنَّ الرَّجُلَ الْآخَرَ قَدْ بَدَأَ يَغْضَبُ، ثُمَّ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ وَارْتَسَمَتْ عَلَى شَفَتَيْهِ ابْتِسَامَةٌ صَغِيرَةٌ وَقَالَ: «أَتَعْلَمُ شَيْئًا، بَعْدَ إِعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْأَمْرِ، أَظُنُّ أَنَّكَ تَعْلَمُ حَقًّا مَاذَا تَفْعَلُ.» ثُمَّ أَعْطَى ظَهْرَهُ لِهال وَتَحَرَّكَ بَعِيدًا فِي صَمْتٍ.

كَانَتْ مرسيدس مُحْرَجَةً مِنْ هَذَا الْمَشْهَدِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ سَعِيدَةً لِأَنَّهُ انْتَهَى.

وَقَالَتْ لِأَخِيهَا: «لَا تَهْتَمَّ لِذَلِكَ الرَّجُلِ، أَنْتَ الَّذِي سَيَقُودُ كِلَابَنَا، لِذَلِكَ افْعَلْ مَا تَرَاهُ مُنَاسِبًا.»

قَامَ هال بِكُلِّ مَا بِوُسْعِهِ لِحَمْلِ الْكِلَابِ عَلَى التَّحَرُّكِ، وَقَدْ دَفَعَتِ الْكِلَابُ نَفْسَهَا إِلَى الْأَمَامِ وَغَرَسَتْ أَقْدَامَهَا فِي الثَّلْجِ وَانْخَفَضَتْ مُسْتَخْدِمَةً كُلَّ قُوَّتِهَا فِي مُحَاوَلَةٍ لِتَحْرِيكِ الْمِزْلَجَةِ. وَلَكِنَّ الْمِزْلَجَةَ لَمْ تَتَزَحْزَحْ مِنْ مَكَانِهَا كَمَا لَوْ كَانَتْ مِرْسَاةً، وَبَعْدَ مُحَاوَلَتَيْنِ تَوَقَّفَتِ الْكِلَابُ سَاكِنَةً تَلْهَثُ. كَانَ هال يَسْتَشِيطُ غَضَبًا مِنَ الْكِلَابِ؛ فَقَدْ صَرَخَ وَدَفَعَهَا بِقُوَّةٍ، لَكِنَّ مرسيدس أَوْقَفَتْهُ مَرَّةً أُخْرَى، وَسَقَطَتْ عَلَى رُكْبَتَيْهَا أَمَامَ باك وَالدُّمُوعُ تَمْلَأُ عَيْنَيْهَا، ثُمَّ وَضَعَتْ ذِرَاعَيْهَا حَوْلَ رَقَبَتِهِ.

بَكَتْ قَائِلَةً: «أَيَّتُهَا الْكِلَابُ الْمِسْكِينَةُ، لِمَاذَا لَا تَسْحَبِينَ بِقُوَّةٍ؟ عِنْدَهَا لَنْ يَكُونَ قَاسِيًا مَعَكُمْ.»

لَمْ يُحِبَّهَا باك، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي حَالَةٍ يُرْثَى لَهَا لَمْ يَسْتَطِعْ مَعَهَا الْمُقَاوَمَةَ.

لَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدُ الْمُرَاقِبِينَ — وَالَّذِي كَانَ يُطْبِقُ عَلَى أَسْنَانِهِ مِنْ شِدَّةِ الْحَنَقِ — أَنْ يَصْمُتَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَتَحَدَّثَ قَائِلًا: «لَا يُهِمُّنِي مَا يَحْدُثُ لَكُمْ، وَلَكِنْ مِنْ أَجْلِ الْكِلَابِ

أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكُمْ بِهَذَا، يُمْكِنُكُمْ مُسَاعَدَتُهَا كَثِيرًا بِتَحْرِيرِ الْمِزْلَجَةِ مِنَ الجَلِيدِ، فَهِيَ مُجَمَّدَةٌ عَلَى الْأَرْضِ. أَلْقُوا بِوَزْنِكُمْ عَلَيْهَا وَادْفَعُوهَا يَمِينًا وَيَسَارًا وَأَخْرِجُوهَا.»

حَاوَلُوا تَحْرِيكَ الْمِزْلَجَةِ لِلْمَرَّةِ الثَّالِثَةِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ اتَّبَعُوا نَصِيحَةَ الرَّجُلِ وَتَمَكَّنَ هال مِنْ تَحْرِيرِ الْمِزْلَجَةِ مِنَ الْجَلِيدِ. تَحَرَّكَتِ الْمِزْلَجَةُ الْمُثْقَلَةُ بِالْحُمُولِ إِلَى الْأَمَامِ، مَعَ كِفَاحِ باك وَزُمَلَائِهِ وَمُعَامَلَةِ هال الْقَاسِيَةِ. بَعْدَ مِائَةِ يَاردة انْحَنَى الطَّرِيقُ وَانْحَدَرَ إِلَى الْأَسْفَلِ فِي اتِّجَاهِ الشَّارِعِ الرَّئِيسِيِّ. كَانَ الْأَمْرُ يَسْتَدْعِي سَائِقًا مُحْتَرِفًا لِكَيْ يُحَافِظَ عَلَى الْمِزْلَجَةِ الْمُثْقلَةِ بِالْحُمُولِ مُعْتَدِلَةً فِي هَذَا الْمُنْحَنَى، وَلَكِنَّ هال لَمْ يَعْرِفْ كَيْفَ يَقُومُ بِذَلِكَ. وَبِمُجَرَّدِ أَنِ انْعَطَفُوا فِي ذَلِكَ الْمُنْحَنَى، سَقَطَتِ الْمِزْلَجَةُ وَتَنَاثَرَتْ نِصْفُ حُمُولَتِهَا عَبْرَ الْحِبَالِ الرَّخْوَةِ. لَمْ تَتَوَقَّفِ الْكِلَابُ عَنِ الرَّكْضِ وَانْقَلَبَتِ الْمِزْلَجَةُ عَلَى جَانِبِهَا خَلْفَهُمْ. كَانَتِ الْكِلَابُ غَاضِبَةً بِسَبَبِ الْمُعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ وَالْحِمْلِ الثَّقِيلِ، وَكَانَ باك يَتَشَيَّطُ غَضَبًا، وَانْدَفَعَ رَاكِضًا، وَتَبِعَهُ الْقَطِيعُ، وَأَخَذَ هال يَصْرُخُ: «تَوَقَّفُوا! تَوَقَّفُوا!» وَلَكِنَّهَا لَمْ تَتَوَقَّفْ. تَعَثَّرَ هال وَسَقَطَ وَسُحِبَ مِنْ قَدَمَيْهِ، انْدَفَعَتِ الْكِلَابُ عَبْرَ الطَّرِيقِ، نَاثِرَةً بَاقِي الْحُمُولَةِ عَلَى طُولِ الطَّرِيقِ.

قَامَ بَعْضُ الْأَشْخَاصِ الطَّيِّبِينَ بِالْإِمْسَاكِ بِالْكِلَابِ وَجَمْعِ الْمُقْتَنَيَاتِ، كَمَا قَدَّمُوا لَهُمْ بَعْضَ النَّصَائِحِ. فَقَدْ أَخْبَرُوا هال وَتشارلز وَمرسيدس أَنَّ عَلَيْهِمْ تَقْلِيلَ حِمْلِهِمْ إِلَى النِّصْفِ وَإِحْضَارَ ضِعْفِ عَدَدِ الْكِلَابِ إِذَا أَرَادُوا الْوُصُولَ إِلَى داوسون كَمَا يُخَطِّطُونَ. اسْتَمَعَ هال وَشَقِيقَتُهُ وَصِهْرُهُ عَلَى مَضَضٍ إِلَى النَّصَائِحِ، وَتَخَلَّصُوا مِنْ خَيْمَتِهِمْ وَفَحَصُوا كَافَّةَ مُتَعَلَّقَاتِهِمْ؛ فَأَلْقَوُا الطَّعَامَ الْمُعَلَّبَ، وَالَّذِي جَعَلَ الرِّجَالَ الْآخَرِينَ يَضْحَكُونَ؛ لِأَنَّ الطَّعَامَ الْمُعَلَّبَ عَلَى طُرُقِ السَّفَرِ مَا هُوَ إِلَّا حُلْمٌ.

قَالَ أَحَدُ الرِّجَالِ الَّذِينَ كَانُوا يَضْحَكُونَ وَيُسَاعِدُونَهُمْ: «هَذِهِ الْبَطَّانِيَّاتُ تَلِيقُ بِفُنْدُقٍ، حَتَّى نِصْفُهَا سَيَكُونُ كَثِيرًا جِدًّا، تَخَلَّصُوا مِنْهَا. وَأَلْقُوا الْخَيْمَةَ وَكُلَّ هَذِهِ الْأَطْبَاقِ بَعِيدًا. مَنِ الَّذِي سَيَغْسِلُهُمْ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ؟ هَلْ تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ مُسَافِرُونَ عَلَى مَتْنِ قِطَارٍ فَاخِرٍ؟»

اسْتَمَرَّ الْأَمْرُ هَكَذَا وَهُمْ يَتَخَلَّصُونَ مِنْ كُلِّ مَا لَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ. بَكَتْ مرسيدس عِنْدَمَا تَمَّ إِفْرَاغُ حَقَائِبِ مَلَابِسِهَا عَلَى الْأَرْضِ وَرُمِيَتْ كُلُّ مَلَابِسِهَا. كَانَتْ حَزِينَةً، وَعِنْدَمَا انْتَهَتْ مِنْ فَحْصِ أَشْيَائِهَا، فَحَصَتْ مُتَعَلَّقَاتِ الرَّجُلَيْنِ كَالْإِعْصَارِ.

بِالرُّغْمِ مِنْ أَنَّ الْحُمُولَةَ خَفَّتْ بِمِقْدَارِ النِّصْفِ، كَانَتْ لَا تَزَالُ كَبِيرَةً. ذَهَبَ تشارلز وَهال فِي الْمَسَاءِ وَاشْتَرَوْا سِتَّةَ كِلَابٍ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَكُنْ مِنَ الشَّمَالِ. هَذِهِ الْكِلَابُ — بَعْدَ إِضَافَتِهَا لِلْفَرِيقِ الْأَصْلِيِّ الْمُكَوَّنِ مِنْ سِتَّةِ كِلَابٍ، وَتيك وَكونا كَلْبَيِ الهاسكي اللَّذَيْنِ تَمَّ شِرَاؤُهُمَا مِنْ مُنْحَدَرِ نَهْرِ رينك فِي الرِّحْلَةِ الْقِيَاسِيَّةِ — جَعَلَتِ الْفَرِيقَ مُكَوَّنًا مِنْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ كَلْبًا. وَلَكِنَّ الْكِلَابَ الْجَدِيدَةَ — رُغْمَ أَنَّهَا كَانَتْ مُدَرَّبَةً — لَمْ تَكُنْ بَارِعَةً، فَبَدَتْ وَكَأَنَّهَا لَا تَعْلَمُ شَيْئًا، وَلَمْ يُحِبَّهُمْ باك وَرِفَاقُهُ. وَقَدْ عَلَّمَ باك الْكِلَابَ الْجَدِيدَةَ بِسُرْعَةٍ مَا لَا يَجِبُ عَلَيْهَا فِعْلُهُ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْ تَعْلِيمِهَا مَا يَجِبُ فِعْلُهُ. فَلَمْ تَكُنْ مَخْلُوقَةً لِهَذَا الطَّرِيقِ وَلَا الْعَمَلِ الشَّاقِّ الَّذِي يُصَاحِبُهُ. كَانَ مُعْظَمُهَا مُرْتَبِكًا وَخَائِفًا مِنَ الْمُحِيطِ الْغَرِيبِ وَالْمُعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ الَّتِي تَتَلَقَّاهَا.

وَنَظَرًا لِأَنَّ الْوَافِدِينَ الْجُدُدَ كَانُوا مَيْئُوسًا مِنْهُمْ، وَالْفَرِيقَ الْقَدِيمَ مُنْهَكٌ بِسَبَبِ الرَّكْضِ الْمُتَوَاصِلِ لِمَسَافَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسِمِائَةِ مِيلٍ، كَانَ الْوَضْعُ غَيْرَ مُبَشِّرٍ بِالْخَيْرِ. وَلَكِنَّ الرَّجُلَيْنِ كَانَا مُبْتَهِجَيْنِ رُغْمَ ذَلِكَ، وَكَانَا فَخُورَيْنِ أَيْضًا؛ إِذْ إِنَّهُمَا لَمْ يُشَاهِدَا مِزْلَجَةً يَجُرُّهَا أَرْبَعَةَ عَشَرَ كَلْبًا مِنْ قَبْلُ. وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ سَبَبٌ وَجِيهٌ كَيْ لَا يَجُرَّ أَرْبَعَةَ عَشَرَ كَلْبًا مِزْلَجَةً وَاحِدَةً فِي الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ، أَلَا وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِمِزْلَجَةٍ وَاحِدَةٍ أَنْ تَحْمِلَ طَعَامًا يَكْفِي أَرْبَعَةَ عَشَرَ كَلْبًا. وَلَكِنَّ تشارلز وَهال لَمْ يَكُونَا عَلَى عِلْمٍ بِذَلِكَ؛ فَقَدْ خَطَّطَا لِكُلِّ شَيْءٍ عَلَى الْوَرَقِ، وَحَسَبا كَمِّيَّةَ الطَّعَامِ الَّتِي ظَنَّا أَنَّهُما سَيَحْتَاجانِهَا. وَكَانَ الْأَمْرُ يَبْدُو بَسِيطًا لِلْغَايَةِ.

قَادَ باك الْقَطِيعَ الْكَبِيرَ عَبْرَ الطَّرِيقِ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي. لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ حَيَوِيَّةٍ أَوْ نَشَاطٍ فِيهِ أَوْ فِي زُمَلَائِهِ. فَقَدْ كَانُوا يَبْدَءُونَ الرِّحْلَةَ وَهُمْ فِي غَايَةِ التَّعَبِ وَالْإِرْهَاقِ، لَقَدْ قَطَعَ باك الْمَسَافَةَ بَيْنَ سولت ووتر وَداوسون أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَكَانَتْ فِكْرَةُ أَنَّهُ سَيَقْطَعُ الطَّرِيقَ نَفْسَهُ مَرَّةً أُخْرَى — وَهُوَ مُنْهَكُ الْقُوَى بِهَذَا الشَّكْلِ — تُثِيرُ غَضَبَهُ بِشِدَّةٍ. لَمْ يَكُنْ يَقُومُ بِعَمَلِهِ بِحُبٍّ، وَكَانَ الْوَافِدُونَ الْجُدُدُ خَائِفِينَ، وَالْفَرِيقُ الْقَدِيمُ لَمْ يَكُنْ يَثِقُ فِي سَائِقِيهِ.

كَانَ باك يَعْلَمُ أَنَّ الْكِلَابَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْتَمِدَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ الثَّلَاثَةِ. فَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ كَيْفَ يَقُومُونَ بِأَيِّ شَيْءٍ، وَمَعَ مُرُورِ الْأَيَّامِ اتَّضَحَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُمُ التَّعَلُّمُ، فَقَدْ كَانُوا كَسُولِينَ؛ يَسْتَغْرِقُونَ نِصْفَ اللَّيْلَةِ لِنَصْبِ مُخَيَّمٍ فَوْضَوِيٍّ، ثُمَّ نِصْفَ فَتْرَةِ الصَّبَاحِ لِحَزْمِ الْمُخَيَّمِ وَتَحْمِيلِ الْمِزْلَجَةِ بِطَرِيقَةٍ رَدِيئَةٍ جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُمْ كَانُوا يَنْشَغِلُونَ طَوَالَ

الْيَوْمِ بِالتَّوَقُّفِ وَإِعَادَةِ تَرْتِيبِ الْحُمُولَةِ. وَفِي أَيَّامٍ أُخْرَى لَمْ يَسْتَطِيعُوا بَدْءَ الرِّحْلَةِ أَسَاسًا، وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَقْطَعُوا كُلَّ يَوْمٍ الْمَسَافَةَ الَّتِي خَطَّطَ لَهَا الرَّجُلَانِ.

بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ، كَانَ طَعَامُ الْكِلَابِ سَيَنْفَدُ مِنْهُمْ عَنْ قَرِيبٍ، وَقَدْ سَرَّعَ الرَّجُلَانِ مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ بِإِطْعَامِ الْكِلَابِ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي، فَكَانَ الْوَافِدُونَ الْجُدُدُ يَأْكُلُونَ كَثِيرًا، وَعِنْدَمَا كَانَ الْفَرِيقُ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ بِضَعْفٍ، يَظُنُّ هال أَنَّ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْكُلُوا مَا يَكْفِي وَيُضَاعِفُ حِصَّتَهُمْ. وَعِنْدَمَا شَعَرَتْ مرسيدس بِالْأَسَفِ تِجَاهَ الْكِلَابِ وَلَمْ تَسْتَطِعْ إِقْنَاعَ أَخِيهَا بِإِعْطَائِهَا طَعَامًا إِضَافِيًّا، سَرَقَتْ مِنَ الْمَخْزُونِ وَأَطْعَمَتْهَا عِنْدَمَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلَانِ يُرَاقِبَانِهَا. وَلَمْ يَكُنْ باك وَكِلَابُ الهاسكي فِي حَاجَةٍ لِلطَّعَامِ؛ بَلْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ لِلرَّاحَةِ.

أَدْرَكَ هال فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ أَنَّ طَعَامَ الْكِلَابِ قَدْ نَفِدَ نِصْفُهُ، وَلَمْ يَكُونُوا قَدْ قَطَعُوا إِلَّا مَسَافَةً قَلِيلَةً مِنْ رِحْلَتِهِمْ. وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِيجَادُ طَعَامٍ لِلْكِلَابِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ، لِذَا قَلَّلَ الْحِصَصَ قَلِيلًا وَحَاوَلَ زِيَادَةَ رِحْلَةِ كُلِّ يَوْمٍ. كَانَ مِنَ السَّهْلِ إِعْطَاءُ الْكِلَابِ طَعَامًا أَقَلَّ، وَلَكِنْ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ حَمْلُهُمْ عَلَى السَّفَرِ أَسْرَعَ. كَمَا كَانَ الرَّجُلَانِ وَالْمَرْأَةُ حَانِقِينَ عَلَى بَعْضِهِمْ أَيْضًا.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، قَرَّرُوا أَخِيرًا تَرْكَ الْكِلَابِ السِّتَّةِ الْجَدِيدَةِ لِكَيْ تَرْتَاحَ وَتَسْتَرِدَّ عَافِيَتَهَا. بِحُلُولِ ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ الْأَشْخَاصُ الثَّلَاثَةُ غَاضِبِينَ مِنْ بَعْضِهِمْ طَوَالَ الْوَقْتِ وَيَتَعَامَلُونَ مَعَ بَعْضِهِمْ بِغِلْظَةٍ. فَلَمْ يَعُدِ السَّفَرُ عَبْرَ الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ مُغَامَرَةً مُمْتِعَةً؛ فَكُلُّ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ هُوَ الْجِدَالُ. فَكَانَتْ عَضَلَاتُ جَسَدِهِمْ وَعِظَامُهُمْ تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ، وَحَتَّى قُلُوبُهُمْ تَئِنُّ مِنَ الْأَلَمِ.

وَعِنْدَمَا كَانَ تشارلز وَهال يَتَشَاجَرَانِ، كَانَ ذلك بِسَبَبِ اعْتِقَادِ كُلٍّ مِنْهُمَا أَنَّهُ يَقُومُ بِأَكْثَرِ مِنْ حِصَّتِهِ فِي الْعَمَلِ. كَانَتْ مرسيدس تُوَافِقُ زَوْجَهَا أَحْيَانًا، وَتُوَافِقُ أَخَاهَا أَحْيَانًا أُخْرَى؛ وَالنَّتِيجَةُ شِجَارٌ عَائِلِيٌّ لَا يَنْتَهِي.

لَمْ تَكُنْ مرسيدس تُحِبُّ الطَّرِيقَ، كَمَا كَانَتْ مُعْتَادَةً عَلَى مُسَاعَدَةِ النَّاسِ لَهَا، وَلَكِنَّ زَوْجَهَا وَأَخَاهَا لَمْ يَعْرِضَا الْمُسَاعَدَةَ قَطُّ. بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ، كَانَا يَتَذَمَّرَانِ مِنْهَا، وَفِي الْمُقَابِلِ كَانَتْ هِيَ تُعَامِلُهُمَا مُعَامَلَةً سَيِّئَةً. وَلَمْ تَعُدْ تَهْتَمُّ لِأَمْرِ الْكِلَابِ، وَنَظَرًا لِأَنَّهَا كَانَتْ مُتْعَبَةً وَمُتَأَلِّمَةً أَصَرَّتْ عَلَى رُكُوبِ الْمِزْلَجَةِ. لَمْ تَكُنْ ضَخْمَةَ الْحَجْمِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَزِنُ مِائَةً

وَعِشْرِينَ رَطْلًا، وَقَدْ أَتْعَبَ الْوَزْنُ الْإِضَافِيُّ الْكِلَابَ أَكْثَرَ. رَكِبَتِ الْمِزْلَجَةَ لِعِدَّةِ أَيَّامٍ حَتَّى سَقَطَتِ الْكِلَابُ وَلَمْ تَعُدْ تَسْتَطِيعُ الْجَرَّ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَتَوَسَّلَ إِلَيْهَا تشارلز وَهال لِكَيْ تَنْزِلَ مِنْ عَلَى الْمِزْلَجَةِ وَتَسِيرَ.

وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، حَمَلُوهَا وَأَنْزَلُوهَا مِنْ عَلَى الْمِزْلَجَةِ، لَكِنَّهُمَا لَمْ يُكَرِّرَا هَذِهِ الْفَعْلَةَ مَرَّةً أُخْرَى لِأَنَّهَا جَلَسَتْ عَلَى الطَّرِيقِ وَكَانَتْ غَاضِبَةً مِنْهُمَا بِشِدَّةٍ. مَضَوْا فِي طَرِيقِهِمْ وَلَكِنَّ مرسيدس لَمْ تَتَحَرَّكْ. وَبَعْدَ أَنْ سَارُوا ثَلَاثَةَ أَمْيَالٍ، أَفْرَغُوا حُمُولَةَ الْمِزْلَجَةِ وَعَادُوا مِنْ أَجْلِهَا وَأَجْلَسُوهَا مُجَدَّدًا عَلَى الْمِزْلَجَةِ.

كَانُوا يُعَامِلُونَ بَعْضَهُمُ الْبَعْضَ مُعَامَلَةً سَيِّئَةً، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يُعَامِلُونَ كِلَابَهُمْ بِطَرِيقَةٍ أَسْوَأَ. كَانَ هال وَضِيعًا فِي التَّعَامُلِ مَعَ الْكِلَابِ، وَعِنْدَمَا نَفِدَ طَعَامُ الْكِلَابِ، قَايَضَ سِكِّينَهُ الْكَبِيرَ وَمُسَدَّسَهُ اللَّذَيْنِ كَانَ يَحْمِلُهُمَا فِي حِزَامِهِ فِي مُقَابِلِ لَحْمٍ قَدِيمٍ مُجَمَّدٍ. وَكَانَ هَذَا بَدِيلًا رَدِيئًا لِلطَّعَامِ، مِثْلَ مُحَاوَلَةِ أَكْلِ شَرَائِحَ مِنَ الْحَدِيدِ.

خِلَالَ كُلِّ ذَلِكَ، كَانَ باك يَتَرَنَّحُ فِي مُقَدِّمَةِ الْفَرِيقِ كَأَنَّهُ يَعِيشُ كَابُوسًا. كَانَ يَجُرُّ الْمِزْلَجَةَ عِنْدَ اسْتِطَاعَتِهِ، وَعِنْدَمَا لَمْ يَسْتَطِعْ كَانَ يَسْقُطُ وَيَرْقُدُ فِي مَكَانِهِ بَيْنَمَا يَدْفَعُهُ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصُ حَتَّى يَسْتَطِيعَ الْوُقُوفَ مُجَدَّدًا. وَاخْتَفَتْ كُلُّ الْقُوَّةِ وَاللَّمَعَانِ مِنْ فَرْوِهِ الْجَمِيلِ، فَكَانَ الشَّعْرُ يَنْسَدِلُ مُتَلَبِّدًا فِي كُتَلٍ، وَاخْتَفَتْ عَضَلَاتُهُ، وَأَصْبَحَ نَحِيفًا لِلْغَايَةِ، حَتَّى إِنَّ كُلَّ ضِلْعٍ وَعَظْمَةٍ فِي جَسَدِهِ كَانَتْ بَارِزَةً تَحْتَ جِلْدِهِ. كَانَتْ حَالَتُهُ تُحَطِّمُ الْقُلُوبَ، وَلَكِنَّ قَلْبَ باك لَمْ يَكُنْ قَلْبًا يَسْهُلُ تَحْطِيمُهُ.

لَمْ يَكُنْ فَرِيقُ باك أَحْسَنَ مِنْهُ حَالًا، فَقَدْ بَدَوْا وَكَأَنَّهُمْ هَيَاكِلُ عَظْمِيَّةٌ تَسِيرُ عَلَى الْأَرْضِ، كَانَ عَدَدُهُمْ سَبْعَةً مِنْ ضِمْنِهِمْ باك، وَعِنْدَمَا كَانُوا يَتَوَقَّفُونَ، كَانُوا يَسْقُطُونَ فِي السَّرْجِ كَأَنَّهُمْ أَمْوَاتٌ.

ثُمَّ جَاءَ يَوْمٌ سَقَطَ فِيهِ بيلي وَلَمْ يَعُدْ يَسْتَطِيعُ التَّكْمِلَةَ، وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَتْرُكُوهُ وَرَاءَهُمْ. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، سَقَطَتْ كونا وَكَانَ يَجِبُ تَرْكُهَا أَيْضًا، لَمْ يَتَبَقَّ مِنْهُمْ سِوَى خَمْسَةٍ فَقَطْ: جو الَّذِي كَانَ مُنْهَكًا بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ خَبِيثًا، وَبايك الَّذِي كَانَ يَعْرُجُ وَيَتَأَلَّمُ، وَسوليكس ذِي الْعَيْنِ الْوَاحِدَةِ الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ يُرِيدُ الْعَمَلَ وَلَكِنَّهُ كَانَ حَزِينًا أَنَّ قُوَاهُ قَدْ خَارَتْ، وَتيك الَّذِي لَمْ يَكُنْ قَدْ سَافَرَ بَعِيدًا فِي ذَلِكَ الشِّتَاءِ وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتْعَبًا أَكْثَرَ

مِنَ الْبَقِيَّةِ، وَباك الَّذِي كَانَ لَا يَزَالُ قَائِدَ الْفَرِيقِ وَلَكِنَّهُ كَانَ مُتْعَبًا بِشِدَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ لَا يَقْوَى عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ، وَكَانَ يَتَمَكَّنُ مِنَ الْبَقَاءِ عَلَى الطَّرِيقِ مُعْتَمِدًا فَقَطْ عَلَى الْإِحْسَاسِ بِأَقْدَامِهِ.

الفصل الثامن

جُون ثُورنتُون

رُغْمَ أَنَّ الطَّقْسَ كَانَ رَبِيعِيًّا بَدِيعًا، لَمْ يَشْعُرْ بِهِ لَا الْكِلَابُ وَلَا الْأَشْخَاصُ الْمُسَافِرُونَ مَعَهُمْ، كُلَّ يَوْمٍ كَانَتِ الشَّمْسُ تُشْرِقُ مُبَكِّرًا لِلْغَايَةِ وَتَغْرُبُ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ. فَكَانَ الْفَجْرُ يَبْزُغُ فِي الثَّالِثَةِ صَبَاحًا وَيَظَلُّ نُورُ النَّهَارِ مُضِيئًا حَتَّى التَّاسِعَةِ لَيْلًا.

كَانَتْ قَطَرَاتُ الْمَاءِ تَسِيلُ مِنْ فَوْقِ كُلِّ التِّلَالِ، فَقَدْ بَدَأَ الثَّلْجُ فِي الذَّوَبَانِ فِي كُلِّ مَكَانٍ. وَتَشَكَّلَتْ فَتَحَاتُ الْهَوَاءِ فِي الْجَلِيدِ وَانْفَتَحَتِ الشُّرُوخُ وَاتَّسَعَتْ، بَيْنَمَا سَقَطَتِ الطَّبَقَاتُ الرَّقِيقَةُ مِنَ الْجَلِيدِ فِي النَّهْرِ أَسْفَلَهَا.

وَمَعَ تَسَاقُطِ الْكِلَابِ وَاحِدًا تِلْوَ الْآخَرِ، وَبُكَاءِ مرسيدس، وَصُرَاخِ هال الْغَاضِبِ وَعَيْنَيْ تشارلز الدَّامِعَتَيْنِ، وَصَلَ الْفَرِيقُ مُتَرَنِّحًا إِلَى مُخَيَّمِ جون ثورنتون عِنْدَ مَصَبِّ نَهْرِ وايت. وَبِمُجَرَّدِ مَا تَوَقَّفُوا، انْهَارَتِ الْكِلَابُ عَلَى الْأَرْضِ، وَجَفَّفَتْ مرسيدس دُمُوعَهَا وَنَظَرَتْ إِلَى جون ثورنتون. جَلَسَ تشارلز عَلَى قِطْعَةِ حَطَبٍ لِيَرْتَاحَ، جَلَسَ بِبُطْءٍ وَحِرْصٍ شَدِيدَيْنِ لِأَنَّ جَسَدَهُ كَانَ مُتَخَشِّبًا، وَتَوَلَّى هال مَسْئُولِيَّةَ الْحَدِيثِ مَعَ صَاحِبِ الْمُخَيَّمِ. كَانَ جون ثورنتون يَبْرِي مِقْبَضَ فَأْسٍ، وَاسْتَمَرَّ فِي عَمَلِهِ وَهُوَ يَسْمَعُ، وَكَانَ يُعْطِي رُدُودًا مُقْتَضَبَةً وَحَتَّى عِنْدَمَا يُسْأَلُ كَانَ يُعْطِي نَصَائِحَ أَكْثَرَ اقْتِضَابًا. وَقَدْ أَدْرَكَ ثورنتون مَاهِيَّةَ هَؤُلَاءِ النَّاسِ عَلَى الْفَوْرِ، وَعِنْدَمَا كَانَ يُعْطِيهِمُ النَّصَائِحَ كَانَ مُتَأَكِّدًا أَنَّهُمْ لَنْ يَسْتَمِعُوا لَهَا.

قَالَ هال بَعْدَ أَنْ نَصَحَهُ ثورنتون بِعَدَمِ السَّيْرِ عَلَى الْجَلِيدِ: «قَالُوا لَنَا إِنَّ الْجَلِيدَ يَنْكَسِرُ عَلَى الطَّرِيقِ وَالْقَاعَ يَسْقُطُ، وإِنَّ أَفْضَلَ شَيْءٍ يُمْكِنُنَا فِعْلُهُ هُوَ الِانْتِظَارُ. وَلَكِنَّهُم قَالُوا لَنَا كَذَلِكَ إِنَّنَا لَنْ نَصِلَ إِلَى نَهْرِ وايت، وَهَا نَحْنُ ذَا.»

أَجَابَ جون ثورنتون: «وَلَقَدْ أَخْبَرُوكُمُ الْحَقِيقَةَ. الْقَاعُ سَيَسْقُطُ فِي أَيَّةِ لَحْظَةٍ. وَحْدَهُمُ الْمُغَفَّلُونَ أَصْحَابُ حَظِّ الْمُغَفَّلِينَ الْأَعْمَى يُمْكِنُهُمْ قَطْعُ كُلِّ هَذِهِ الْمَسَافَةِ. لَمْ أَكُنْ لِأُجَازِفَ بِحَيَاتِي عَلَى هَذَا الْجَلِيدِ مُقَابِلَ كُلِّ الذَّهَبِ فِي ألاسكا.»

قَالَ هال: «هَذَا لِأَنَّكَ لَسْتَ مُغَفَّلًا عَلَى مَا أَعْتَقِدُ. عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، سَنَسْتَمِرُّ فِي الطَّرِيقِ إِلَى داوسون. انْهَضْ يَا باك! انْهَضْ! هَيَّا انْطَلِقْ!»

تَابَعَ ثورنتون عَمَلَهُ، فَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِيقَافِ مُغَفَّلٍ مَا هِيَ إِلَّا مَضْيَعَةٌ لِلْوَقْتِ، كَمَا أَنَّ تَخَلُّصَ الْعَالَمِ مِنْ مُغَفَّلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ لَيْسَ شَيْئًا سَيِّئًا عَلَى الْإِطْلَاقِ.

وَلَكِنَّ الْفَرِيقَ لَمْ يَنْهَضْ بَعْدَ أَوَامِرِ هال، فَأَخَذَ هال يَدْفَعُ الْكِلَابَ وَيَرْكُلُهَا وَاسْتَخْدَمَ سَوْطَهُ. عَضَّ جون ثورنتون عَلَى شَفَتَيْهِ فِي مُحَاوَلَةٍ لِلتَّحَكُّمِ فِي أَعْصَابِهِ. كَانَ سوليكس هُوَ أَوَّلُ مَنْ زَحَفَ نَاهِضًا، تَبِعَهُ تيك، ثُمَّ جو وَهُوَ يَصْرُخُ أَلَمًا، وَسَقَطَ بايك مَرَّتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ الْوُقُوفِ. وَلَكِنَّ باك لَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا، كُانَ مُسْتَلْقِيًا فِي هُدُوءٍ فِي مَكَانِ سُقُوطِهِ، وَمَهْمَا فَعَلَ هال، لَمْ يَتَحَرَّكْ باك قِيدَ أُنْمُلَةٍ؛ وَلَمْ يَئِنَّ أَوْ يُقَاوِمَ. وَعِدَّةَ مَرَّاتٍ، كَانَ ثورنتون عَلَى وَشْكِ التَّحَدُّثِ، وَلَكِنَّهُ غَيَّرَ رَأْيَهُ، وَمَع اسْتِمْرَارِ مُعَامَلَةِ هال السَّيِّئَةِ لِباك، هَبَّ ثورنتون وَاقِفًا مِنْ مَكَانِهِ وَأَخَذَ يَقْطَعُ الْمَكَانَ جِيئَةً وَذَهَابًا.

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي يَفْشَلُ فِيهَا باك، وَقَدْ أَثَارَ هَذَا غَضَبَ هال. كَانَ باك لَا يَزَالُ مُصِرًّا عَلَى عَدَمِ التَّحَرُّكِ، فَعَلَى غِرَارِ زُمَلَائِهِ فِي الْفَرِيقِ بِالْكَادِ كَانَ يَتَمَكَّنُ مِنَ الْوُقُوفِ. لَقَدْ عَقَدَ باك الْعَزْمَ عَلَى عَدَمِ النُّهُوضِ مِنْ مَكَانِهِ، فَقَدْ كَانَ لَدَيْهِ إِحْسَاسٌ أَنَّ شَيْئًا سَيِّئًا سَيَحْدُثُ، وَقَدْ رَاوَدَهُ ذَلِكَ الشُّعُورُ عِنْدَ تَوَقُّفِهِمْ عِنْدَ مُخَيَّمِ جون ثورنتون. وَطَوَالَ الْيَوْمِ، بَدَا وَكَأَنَّ الْجَلِيدَ الرَّقِيقَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ عَلَى وَشْكِ الِانْهِيَارِ؛ فَقَدْ كَانَ باك ذَكِيًّا وَخَبِيرًا بِمَا يَكْفِي لِكَيْ يَعْلَمَ ذَلِكَ. فَرَفَضَ التَّحَرُّكَ؛ فَلَقَدْ عَانَى الْكَثِيرَ وَخَارَتْ قُوَاهُ لِدَرَجَةِ أَنَّ شَيْئًا لَمْ يَعُدْ يُؤْذِيهِ الْآنَ، حَتَّى ضَرَبَاتُ هال.

وَفَجْأَةً وَبِدُونِ إِنْذَارٍ، قَفَزَ جون ثورنتون عَلَى هال وَطَرَحَهُ أَرْضًا. صَرَخَتْ مرسيدس وَنَظَرَ تشارلز بِأَسًى، وَمَسَحَ عَيْنَيْهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقِفْ بِسَبَبِ تَيَبُّسِ جَسَدِهِ. وَقَفَ جون ثورنتون أَمَامَ باك وَجَاهَدَ لِلتَّحَكُّمِ فِي أَعْصَابِهِ، إِذْ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ الْغَضَبُ مَبْلَغَهُ حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الْحَدِيثَ.

ثُمَّ قَالَ أَخِيرًا: «إِذَا آذَيْتَ هَذَا الْكَلْبَ مُجَدَّدًا، فَسَأَضْرِبُكَ مَرَّةً أُخْرَى.»

أَجَابَ هال وَهُوَ يَمْسَحُ فَمَهُ: «إِنَّهُ كَلْبِي أَنَا. ابْتَعِدْ عَنْ طَرِيقِي وَإِلَّا سَأَضْرِبُكَ. أَنَا ذَاهِبٌ إِلَى داوسون.»

قَالَ ثورنتون: «لَيْسَ بِهَذَا الْكَلْبِ.»

صَاحَتْ مرسيدس: «احْتَرِسْ يَا هال، نَحْنُ لَا نُرِيدُ الْمَتَاعِبَ.»

أَجَابَهَا هال: «لَا تَتَدَخَّلِي فِي الْأَمْرِ.»

طَوَالَ ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ ثورنتون لَا يَزَالُ يَقِفُ بَيْنَ هال وَباك وَلَمْ يَقُمْ بِأَيِّ حَرَكَةٍ لِلِابْتِعَادِ عَنِ الطَّرِيقِ. رَفَعَ هال سَوْطَهُ، وَلَكِنَّ ثورنتون ضَرَبَ يَدَ هال بِيَدِ الْفَأْسِ، فَسَقَطَ السَّوْطُ عَلَى الْأَرْضِ ثُمَّ ضَرَبَ يَدَ هال بِقُوَّةٍ مَرَّةً أُخْرَى عِنْدَمَا حَاوَلَ اسْتِعَادَتَهُ، ثُمَّ انْحَنَى ثورنتون وَالْتَقَطَ السَّوْطَ مِنْ عَلَى الْأَرْضِ وَأَلْقَى بِهِ بَعِيدًا، ثُمَّ أَخْرَجَ سِكِّينَهُ وَحَرَّرَ باك مِنَ السَّرْجِ.

كَانَ هال مُرْهَقًا جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُ الْقِتَالَ، كَمَا أَنَّ باك كَانَ مُرْهَقًا بِشِدَّةٍ وَلَا يَسْتَطِيعُ الِاسْتِمْرَارَ فِي الْفَرِيقِ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، فَقَالَ هال لِثورنتون: «حَسَنًا، لَقَدْ رَبِحْتَ. احْتَفِظْ بِالْكَلْبِ عَدِيمِ الْجَدْوَى، لَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ.»

بَعْدَ بِضْعِ دَقَائِقَ، انْطَلَقُوا مِنَ الْمُخَيَّمِ وَعَبْرَ الْجَلِيدِ الَّذِي يُغَطِّي النَّهْرَ، سَمِعَهُمْ باك وَهُمْ يَرْحَلُونَ وَرَفَعَ رَأْسَهُ لِيُشَاهِدَهُمْ، كَانَتِ الْكِلَابُ تَعْرُجُ وَتَتَرَنَّحُ، وَكَانَتْ مرسيدس تَرْكَبُ الْمِزْلَجَةَ وَهال يَقُودُ، بَيْنَمَا كَانَ تشارلز يَسِيرُ مُتَعَثِّرًا خَلْفَهُمْ.

جَثَا ثورنتون بِجَانِبِ باك وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُهُ بِيَدَيْهِ الْخَشِنَتَيْنِ اللَّطِيفَتَيْنِ بَحْثًا عَنْ أَيِّ إِصَابَاتٍ. وَرَاقَبَ هُوَ وَباك الْمِزْلَجَةَ وَهِيَ تَتَزَحْلَقُ عَلَى الْجَلِيدِ، وَفَجْأَةً، شَاهَدَا مُؤَخِّرَتَهَا تَسْقُطُ لِأَسْفَلَ، ثُمَّ سَمِعَا مرسيدس تَصْرُخُ، وَرَأَيَا تشارلز يَرْجِعُ وَيَجْرِي لِلْخَلْفِ، ثُمَّ سَقَطَ جُزْءٌ كَامِلٌ مِنَ الْجَلِيدِ بَيْنَمَا اخْتَفَى الْبَشَرُ وَالْكِلَابُ. لَقَدِ انْكَسَرَ الْجَلِيدُ وَسَقَطَ الْقَاعُ.

شَاهَدَا الْفَرِيقَ وَهُوَ يُكَافِحُ بِدُونِ الْمِزْلَجَةِ أَوْ أَيٍّ مِنْ مُتَعَلَّقَاتِهِمْ، وَسَحَبُوا أَنْفُسَهُمْ وَالْكِلَابَ إِلَى الضَّفَّةِ الْمُقَابِلَةِ. وَبِدُونِ طَلَبِ أَيِّ مُسَاعَدَةٍ مِنْ ثورنتون، مَشَى الْفَرِيقُ نَحْوَ الْجِهَةِ الَّتِي أَتَوْا مِنْهَا تِجَاهَ الْمُخَيَّمِ التَّالِي، حَيْثُ سَيُجَفِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَحْصُلُونَ عَلَى بَعْضِ التَّدْفِئَةِ قَبْلَ الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِهِمْ.

نَظَرَ جون ثورنتون وَباك إِلَى بَعْضِهِمَا الْبَعْضِ.

قَالَ جون ثورنتون: «أَيُّهَا الشَّيْطَانُ الْمِسْكِينُ.» وَلَعَقَ باك يَدَهُ.

فِي دِيسَمْبِرَ الْمَاضِي، تَبَلَّلَتْ قَدَمَا جون ثورنتون وَتَجَمَّدَتَا فِي الْبَرْدِ. فَأَرَاحَهُ زُمَلَاؤُهُ ثُمَّ تَرَكُوهُ لِيَتَحَسَّنَ بَيْنَمَا سَافَرُوا بِاتِّجَاهِ مَنْبَعِ النَّهْرِ لِلَّحَاقِ بِطَوْفٍ يَتَّجِهُ إِلَى داوسون. كَانَ لَا يَزَالُ يَعْرُجُ قَلِيلًا عِنْدَمَا أَنْقَذَ باك، وَلَكِنْ مَعَ تَحَوُّلِ الْجَوِّ لِلدِّفْءِ تَوَقَّفَ عَنِ الْعَرَجِ.

وَعَلَى غِرَارِ جون ثورنتون، اسْتَغَلَّ باك هَذِهِ الْأَيَّامَ لِيَسْتَرِدَّ عَافِيَتَهُ؛ فَكَانَ يَسْتَلْقِي بِجَانِبِ ضَفَّةِ النَّهْرِ طَوَالَ فَتْرَةِ الْعَصْرِ الطَّوِيلَةِ فِي الرَّبِيعِ، يُشَاهِدُ الْمِيَاهَ الْجَارِيَةَ وَيَسْتَمِعُ إِلَى غِنَاءِ الطُّيُورِ وَأَصْوَاتِ الطَّبِيعَةِ، وَقَدِ اسْتَعَادَ قُوَّتَهُ بِبُطْءٍ.

كَانَ الشُّعُورُ بِالرَّاحَةِ جَمِيلًا بَعْدَ السَّفَرِ لِمَسَافَةِ ثَلَاثَةِ آلَافِ مِيلٍ، وَشَعَرَ باك بِالْخُمُولِ بَيْنَمَا تُشْفَى جُرُوحُهُ وَتَتَعَافَى عَضَلَاتُهُ وَيَعُودُ اللَّحْمُ لِيُغَطِّيَ عَظْمَهُ. كَانُوا جَمِيعًا — باك وَجون ثورنتون وَسكيت وَفيج — يَشْعُرُونَ بِالْخُمُولِ وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ الطَّوْفَ لِيَعُودَ وَيَأْخُذَهُمْ إِلَى داوسون. كَانَتْ سكيت كَلْبَةً صَغِيرَةً، وَقَدْ كَوَّنَتْ صَدَاقَةً سَرِيعًا مَعَ باك الَّذِي كَانَ مُرْهَقًا لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَا يَقْوَى حَتَّى عَلَى إِبْعَادِهَا. كَانَتْ مِثْلَ الطَّبِيبِ الْخَاصِّ بِهِ؛ وَبِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا الَّتِي تَغْسِلُ بِهَا الْقِطَّةُ الْأُمُّ صِغَارَهَا، كَانَتْ سكيت تَغْسِلُ وَتُنَظِّفُ جِرَاحَ باك. كُلُّ صَبَاحٍ بَعْدَ أَنْ يُنْهِيَ إِفْطَارَهُ، كَانَتْ تَعْتَنِي بِهِ حَتَّى بَدَأَ يَتَطَلَّعُ لِهَذِهِ الْجِلْسَاتِ. أَمَّا فيج، فَقَدْ كَانَ كَلْبًا أَسْوَدَ اللَّوْنِ ضَخْمَ الْجُثَّةِ، وَكَانَ لَطِيفًا تَمَامًا مِثْلَ سكيت، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُظْهِرْ ذَلِكَ كَثِيرًا مِثْلَهَا.

وَلِدَهْشَةِ باك، لَمْ يُعَامِلْهُ هَذَانِ الْكَلْبَانِ بِطَرِيقَةٍ سَيِّئَةٍ، وَلَمْ يَتَنَافَسَا مَعَهُ، بَلْ كَانَا لَطِيفَيْنِ وَكُرَمَاءَ مِثْلَ جون ثورنتون نَفْسِهِ.

بَدَأَ باك يَشْعُرُ بِالْحُبِّ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ. فَلَمْ يَخْتَبِرْ ذَلِكَ الشُّعُورَ مِنْ قَبْلُ فِي مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر فِي وَادِي سانتا كلارا الْمُشْمِسِ؛ فَمَعَ أَبْنَاءِ الْقَاضِي عِنْدَمَا كَانُوا يَصْطَادُونَ، كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ شَرِيكُهُمْ، وَمَعَ أَحْفَادِ الْقَاضِي، كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ الْحَارِسُ، وَمَعَ الْقَاضِي، كَانَ يَشْعُرُ أَنَّهُ صَدِيقُهُ، وَلَكِنْ مَعَ جون ثورنتون، تَذَوَّقَ باك الْحُبَّ.

فَهَذَا الرَّجُلُ أَنْقَذَ حَيَاتَهُ، إِذْ كَانَ باك يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَنْجُوَ مِنْ تِلْكَ الرِّحْلَةِ مَعَ هال وَتشارلز وَمرسيدس. كَمَا كَانَ جون ثورنتون أَفْضَلَ سَيِّدٍ حَصَلَ عَلَيْهِ أَيْضًا. فَكَانَ الرِّجَالُ الْآخَرُونَ يَعْتَنُونَ بِكِلَابِهِمْ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مَنْطِقِيًّا، أَمَّا ثورنتون فَكَانَ يَعْتَنِي بِكِلَابِهِ وَكَأَنَّهَا أَوْلَادُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أَلَّا يَفْعَلَ ذَلِكَ.